# الدكتور عبد العزيز الدسوقى

يمثل عبد العزيز الدسوقى قِلَّةً من ذوى الرأى الحر، فهو لايكتب إلا عن اعتقاد جازم، ويقين سديد، لذلك تجد مقالاته النقدية والسياسية جياشة موارة، تحسّ فيها وهج الدم، ونبض العروق، وقد تخالفه أو توافقه، ولكنك تعرف أنه صادق مخلص، لا يستملى غير ضميره، ولا يستمع إلى غير هتاف وجدانه، ومثل هذا الكاتب يعانى أزمة من أصدقائه قبل أن يعانى أزمات خصومه، لأنه حين يندفع إلى معارضته أستاذ عزيز عليه، أو صديق يثق بإنسانيته، يكابد حرجًا بينه وبين نفسه، ولكنه يحسم الصراع سريعًا بكتابة ما يعتقد، وفى يقينى أن أصدقاءه يعرفون معدنه الحر، فيقابلون اعتراضاته بالترحيب أمَّا معارضوه فيحارون فى أمره، لأنهم يحبون المعارض السياسىّ الذى يلجأ إلى الدروب والمنحنيات، ويتثعلب ويتذاءب، أمّا الشجاع الذى يقف فى الميدان ليقول ما يعتقد فهذا ما لايطيقون دفعه، لأن فيهم خفافيش لاتحب غير الظلام.

نشأ عبد العزيز صاحب رأى وهو فى عهد الطلب، وقد فهم فى عمره الباكر أن الأدب رسالة لا حِرْفة، لذلك كان أول كتاب ألّفه وهو تلميذ فى المعهد الأزهرى عن حياة البطل المفترى عليه أحمد عرابى، إذْ آمن بزعامته، وعشق بطولته، وقد ساءه مالقى حينئذ من اضطهاد ظالم، حيث لم ينصفه إلاَّ أفراد معدودون، فى طليعتهم الأستاذ الأديب محمود الخفيف، فرأى أن يكتب عن هذا البطل الخالد كتابًا، كان تنفيسًا عن أوارٍ حبيس فى صدره، وقد جال ببصره فى مجتمع ما قبل الثورة حين أصدر كتابه الأول، فرأى أن الزعيم أحمد حسين أقرب الزعماء إلى قلبه، فآثره بحبّه، وظلَّ وفيا لمبادئه، وكَتَبَ مؤلّفه الثانى فى عهد الطلب عنه

أيضًا، وقد جدت أحوال وتغيّرت ظروف، واضطر الزعيم الفدائى إلى الانزواء قانعًا ببحوثه الإسلامية، وقصصه الأدبية، وتباعد عنه مَنْ رأوا الحظوة فى هذا التباعد، زلفى لمن بأيديهم الائتلاق والذيوع، ولكنّ عبد العزيز آثَر الالتصاق الحميم بأستاذه، فكان يستحثه أن يكتب، ثم إذا ظهر مؤلفه إلى النور سارع بالحديث عنه محلّلا مدقّقًا، وقد قرأتُ فى مجلة الأديب اللبنانيّة مقالات تحليلية لآثار أحمد حسين كادت تكون منفردة فى ميدانها، لأن المرتزقين لم يجدوا عنده نفعًا فى اعتزاله، فابتعدوا عن التنويه بآثاره، وقد نهض عنهم عبد العزيز بعبء يرونه ثقيلاً، ويراه أخف من النسيم.

## صلة وثيقة:

قَامَ الدكتور عبد العزيز عَلَى تحرير مجلّة الثقافة، فكنت أقرؤها بشغف، ثم رأيت بعد عدة سنوات من صدورها قصيدة تحت عنوان «رحيل مفاجئ» منشورة باسم شاعرة أخذ اسمها يتردّد فى ندوات القاهرة، فعجبت أكثر العجب، لأن القصيدة من قصائدى التى نشرتُها بمجلتى العربى والأديب فى رثاء زوجتى الراحلة، ولم تزد الشاعرة عن أن جعلت ضمير المؤنث مذكرًا، وكان مصدر العجب أن القصيدة المسروقة نُشِرت فى العدد السنوى الممتاز من مجلة العربى، وهو عدد يُطبع منه أكثر من مليون نسخة، فهو ذائع مشتهر، فكيف يقع هذا السَّطْوُ دون مبالاة، ثم جاءنى اعتذار من الشاعرة تعلن فيه أسفها، وتدعونى إلى السكوت بدون تعليق حرصًا على اسمها، وكتبتُ للدكتور عبد العزيز أعلمه بما كان، فردّ على بخطاب أعتز به غاية الاعتزاز، لأنه حدثنى عن نفسى كثيرًا بما أجهله عنها، ويعرفه هو بذكائه، وفراسته، ثم دعانى إلى المشاركة فى تحرير الثقافة، إذ لايجوز أن تنشر أكثر مقالاتى خارج مصر، ثم لاتظهر فى مجلة يقوم على تحريرها! وقد استجبت لدعوته سعيداً مرتاحًا، ولكنّ الدسوقى أصرّ على أن يعلن عن جريمة السّرقة، إذا أن من حقّ القراء أن يعرفوا النسبة الصحيحة لأثرٍ أدبى طَالَعُوهُ، كما أنّ واجب الردع للسارقين والسارقات جزاء طبيعى، وليس فى المسألة هنا قطع يد جزاء بما كسبت، نكالاً منه، ولكنه إعلان يحذر من تسَوِّلُ له

نفسه أنْ يعيد الكَرَّة غير عابئ بجريرته! وجاءنى خطاب تالٍ من الشاعرة تستعطف، وترجو أن أحُولَ دون الإعلان، فكتبت ثانية أرجو الدكتور عبد العزيز أن يهمل هذه المسألة فاستجاب على ضيق، وجاءته قصائد أخرى من الشاعرة فواجهها مواجهة قاسية، وأصرّ على أن تكون بمنأى من مجلة الثقافة، وهذا حقّه الطبيعىّ فلا نكران.

## مجلّة الثقافة:

ظهرت مجلّة الثقافة تحمل اسمها الدال على هدفها، فهى استمرار لمجلة سالفة قام على إصدارها فريق من أعلام الفكر الأُصَلاء، وهم بعد نخبة من كُتّاب الرسالة آثروا الانفراد فى مجلّة خاصة بهم، والرسالة والثقافة معًا مجلتان رائدتان تؤصلان تراث العرب، وتستقبلان النافع السديد من فكر الغرب، لذلك حرص الدسوقى على أن يكون من محررى الثقافة مَن بقى من أعلام المجلتين مثل الأساتذة محمود شاكر، وطه الحاجرى، وعبد الغنى حسن، ومحمود البدرى، وعباس خضر، وكانت رئاسته التحرير إلهامًا صائبًا من القَدر، لأن الدعوة إلى الحرية فى ظل الأصالة والمعاصرة تحتاج إلى مكافح قوى الشكيمة يعيد ما طمسه الانتهازيون على مدى عشرين عامًا أو تزيد، حين اندست الألغام الناسفة لتدمر الحياة الروحية والسمو الأدبى على أيدى من يسمون أنفسهم بالماركسيين، أو الناصريين، أو المكافحين ادعاءً فقط عن حقوق العمال والفلاحين، وقد احتلوا منابر الإذاعة والصحافة ودور النشر والطباعة ليحاربوا كل اتجاه إسلامى، وليشنوا الحرب على الدين باسم الفن الحر، داعين إلى الانحدار الخُلقى مباهين بالإلحاد والزندقة، وقد حصروا حرية الفن فى تصوير العلاقات الجنسيّة، وتهوين الرذائل الخلقية، فإذا عرفوا قلمًا مؤمنا لفّقوا له التهم، ورموه بالرجعية والعمالة، ومن ورائهم مايسمّى بمراكز القوى تشد الأزر، وتمهّد السبيل، لأن أصحاب هذه المراكز فى حاجة إلى مأجورين يزيفون، وانتهازيين يباركون!

كان العبء ثقيلاً لايطيقه غير كاهل قوى، ولاينهض به إنسان مجامل يحذر

المواجهة الصريحة، فهيأت الأقدار عبد العزيز الدسوقى ليجابه كل هؤلاء بصراحته الرنانة، وأقول الرنّانة عن قصد، لأنه لايعرف الهمس العاتب، أو التورية ذات الوجهيْن، وقد تتبع هؤلاء فى كتاباتهم المنتشرة على مدى العالم العربى، فكان يعقّب على كل مقال يخالف منهج الثقافة، واصطدم بمن يحملون الأسماء المدويّة ذات الطبل الناهق، ولهم مكاناتُهم العلمية، ومراكزهم الجامعيّة، وأشياعهم المغرورون، اصطدم بكل هؤلاء، وفيهم من بلغ أرذل العمر سنا بدون أن يفكر فى غَده القريب، وقد ارتاع هؤلاء إذ تعودوا على مدى ربع قرن أن يقولوا بدون معارضة، وأن يتهموا البُرَءَاءَ فى أمْنٍ مِنْ أَنْ يُجَابَهُوا بالنقد الهادم! كما أنّ من براعته الفائقة أن عمل على جذب الكبار من أصدقائه السياسيين ليسهموا معه فى ميدان الكفاح، فكانت المجلة تحفل بمقالات أحمد حسين، وفتحى رضوان، وحافظ محمود، وهم أصحاب رسالة قبل أن يكونوا كُتابًا فى الصحف والمجلاّت! لقد جاء نصر اللّه والفتح فيما ناضل به الدسوقى على صفحات الثقافة! وهو جهد لن يضيع..

**أساتذة الأدب:**

ذكر لى الأستاذ الدسوقى فى بعض خطاباته، أنه يلمح توافقًا كبيرًا بين ما أكتبه ويكتبه، حتّى إنه ليقرأ لى ما كان يود أن يقوله كثيرًا، وقد أرجعت ذلك إلى اتحاد المنبع الثقافى الذى ارتشفنا منه معًا، وقد ذكر فيما كتب عن نفسه أنه تأثر فى مطلع حياته الأدبية بالدكتور طه حسين، والدكتور زكى مبارك، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، فكانت آثارهم موضع اهتمامه إلى حد الكلف، ولَعَلّى أكون قريبًا منه حين أعلن أنى تأثرتُ أيضًا بالدكتور زكى مبارك، والدكتور طه حسين، والأستاذ أحمد أمين، وأحمد أمين قريب من مصطفى، لأن الذى يقرأ كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية) للأستاذ مصطفى عبد الرازق يشعر بجوٍّ مشابه لجو فجر الإسلام، وضُحى الإسلام، مع فارق لابد منه هو أنّ مصطفى عبد الرازق يكثر من النصوص، ويعيش فى ظلها، أما أحمد أمين فيقرؤها ثم يأخذ منها ما يشاء فيصوغه بأسلوبه تارة، وينقل النص تارة أخرى! والأستاذان عالمان أزهريان نسير

على نورهما المضيء، وقد فسح الدسوقى جانبًا كبيرًا من صفحات الثقافة لدراسة الأعلام الثلاثة، وكان صادقًا كل الصدق مع نفسه حين دافع عنهم بإخلاص، دافع عن الدكتور طه معارضًا ماكتبه أستاذاه الكبيران أحمد حسين، ومحمود محمد شاكر، حيث ألح الأول على الحديث عن اتجاه طه حسين المستغرب فى شبابه الأول، وانطلق إلى أمور ذات حساسية، رأى الدكتور الدسوقى أن أحمد حسين قد تجاوز بعض الحدِّ فى سردها، فأقر الحق فى نصابه، وعقب عليه أستاذه بما يعد تقاربًا والتئامًا، لا بُعْدًا وانفصامًا! أما الأستاذ شاكر فقد شك فى قدرة طه حسين على التذوق الأدبى للنّص، وأبدى من الأدلّة ما أقام به وجهة نظره، ولكنّ الدسوقى عارضه حين قرر أن كتب طه المختلفة ـ إذا صرفنا النظر عن كتاب «المتنبى» ـ تنطق بقدرة فائقة على تحليل النص الأدبى ترتفع بطه إلى الذروة، كما أذكر فى هذا المجال أنه عارض فى رسالته الجامعية «تطور النقد الحديث فى مصر» رأيًا للأستاذ فتحى رضوان فى اتجاه طه الاستشراقى، فأكد فى لباقة أن الأستاذ فتحى رضوان لايريد أن يطلق حكمًا عاما على أفكار طه حسين كلها، ولكنه يصف المرحلة الأولى من مراحل فكره، وهذا حق.

أما الدكتور زكى مبارك فقد حباه الدسوقى بمقالات جيّدة تصوّر مالقيه من العقوق والجحود، وتحلّل مأساته تحليلا يردها إلى أسبابها الصحيحة، كما اختص كتاب «عبقرية الشريف الرضى» بدراسة كاشفة، وواصل الحديث عنه فى مناسبات مختلفة، ولم يشأ أن يترك مصطفى عبد الرازق إذْ خصّه بفصل من رسالة الدكتوراه، وماكان مصطفى عبد الرازق نفسه يظن أنه سيحتل فصلاً نابهًا فى مجال الدراسات النقدية، لولا أن فطن الدسوقى إلى كتاب «البهاء زهير»، فحللّه تحليلاً مثيرًا يدل على يقظه واعية، وقال فيما قال: إن انشغال مصطفى عبد الرازق بتدريس الفلسفة والفقه وعلم الكلام، وتوليه الوزارة ومشيخة الأزهر قد أضعف دوره المنتظر فى النقد، وهذا حق، لأن كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق» يحمل من بوارق النقد المبكر ما يهيئ لمستقبل منتظر، وقد حلّلت هذا الكتاب فى بعض أعداد مجلة الثقافة، فراسلنى الدسوقى مباركاً، أما أسلوبه الأدبى فيسمو إلى مستوى بلغاء العصر كالزيات والبشرى.

## مقالات الثقافة:

أخذتُ أتابع بحوثى الأدبية فى مجلة الثقافة بدون انقطاع، وقد اعتدتُ أن أرفق كل مقال أرسله للدكتور الدسوقى بخطاب شخصى أتحدث فيه عن مقالات العدد الأخير، وأكثر ما أتجه إليه وجهة النقد، إذ أنا فى هذه الرسالة الشخصيّة أمثل كاتب السيئات عتيدًا، لاكاتب الحسنات رقيبًا، وكان ارتياح الدسوقى لهذه النقدات، وتعقيبه عليها فى حديثه ومراسلاته دافعًا لمواصلاتها، ولكنها أصبحت لديه سلاحًا ذا حدين، إذ أخذ يهددنى بنشرها لو توانيت عن مقالات الثقافة، ولو نشرت لأغضبت فريقا أكثرهم فى مرتبة أساتذتى، لأن الكاتب كائنا منَ كان لايبدع فى كل مايكتب، بل ينحدر حينا وفقًا لحالته الخاصة حين كتابة المقال، وربما تعجل فساق الكلام بدون أناة، فوقع فيما يوجب النقد.

على أن عبد العزيز كان يدعونى لنقده شخصيا، وما كنت أسكتُ عمَّا أراه موضع نقد، إلا أنى كثيرًا ما أحترم وجهة النظر المخالفة فلا أشتط فى المعارضة، أذكر أنى قرأتُ له فى رسالته الجامعية عن حركة «أبولُّو» الشعرية رأيًا فى تجديد مطران الشعرى لم يرجح لدىَّ، إذْ ذهب إلى أنه ليس بقائد حركة التجديد فى الشعر المعاصر، تلك الحركة التى تبلورت فيما يُسمى بجماعة الديوان، ثم ماوليها من الشعر المهجرى، وشعر جماعة أبولُّو، مع أنّ التاريخ المؤكد يحقق سبق مطران، إذْ وَاصَلَ النشر فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حين كان شكرى والمازنى والعقاد فى سن الطفولة، ثم شبَّ الثلاثة ليقرءوا إبداع مطران متواليًا فى الصحف الذائعة، والمجلات الأدبية قبل أن يجمع الجزء الأول فى ديوان خاص، فكيف لايتأثر به نفر من أيفاع المتطلعين إلى السبق الشعرى وهم يطالعونه بدون انقطاع، قرأت رأى الدسوقى فى سبق مطران، فلم أشأ أن أناقشه فى مقال جديد، ولكنى أخبرته فى محادثة عابرة بإدارة مجلة الثقافة أن لى بحثًا خاصا بتجديد مطران نشرته منذ عشر سنوات فى مجلة (الأدب) ولعلّه فطن إلى ما أريد.

**متابعات:**

كان الدسوقى يكتب المقال الافتتاحى بالثقافة، ومعه بحث أدبى مبسوط ينشره فى وسط المجلة، ثم يختمها بباب المتابعات، حيث يترصد ما يشذ من الآراء فى مجلات العالم العربى، ليعقب بتصحيح قوى، قد ترتفع حرارته فيصبح نقضا هادمًا، إذا كان المجال يتطلب الهدم المكتسح، وله فى هذه الجولات فروسية ممتازة، لأنه ثبت كالطود فى مهب الأعاصير الجارفة، مع احترام مؤكد لأساتذة كبار كالدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور لويس عوض، والدكتور فؤاد زكريا، قد اضطر إلى مخالفتهم بالمنطق الملزم، والحجة الدامغة، وأذكر أنى حاولت أن أكون ذا تعقيبات متواضعة أكتبها بتوقيع (أبو حسام ـ المنصورة) ففسح لى الدكتور الدسوقى مجالاً طيبًا، وكان من المصادفات أن تابعت أستاذنا محمد عبد الغنى حسن فى تحقيق مسألة عروضية تتعلق بشعره، فرد الأستاذ ردا كريماً، ولكن الأستاذ الدكتور الدسوقى رجح ما ذهبتُ إليه، فكان طريفًا من الأستاذ محمد عبد الغنى حسن أن يعقب على ذلك بقوله: ماذا أصنع وقد وقعت بين شيخىْ طريقتيْن صُوفيتين ـ يريد الطريقه الدسوقية، والطريقه البيومية؟! وأنا وأخى عبد العزيز لانعرف شيوخَ هاتيْن الطريقتيْن، ولكن الاسم نمّام.

إن لعبد العزيز محلَّهُ الكريم لَدَى من يتبعون أحسن القول، ومن يقدرون معارك الرأى النزيه.

* * *

# الأستاذ عبد العزيز الربيعى

أحرص على قراءة واجهة مجلة «الأديب» أول ما أقرأ منها، فأنا أعلم أن صاحبها الملهم يختار لها من روائع الإيجاز اللامح، وطرائف الأدب الحى ما يقوم فى كلماته القليلة مقام مقالة رنانة لكاتب جهير، وقد وقع فى يدى عدد مارس من هذا العام، فإذا واجهته العزيزة كلمة هادفة عن المروءة من كلمات أخى عبد العزيز الربيعى! فياالله! لقد كنت أطلق عليه فيما بينى وبين نفسى فَتَى المروءة! وهاهى ذى مجلة «الأديب» تنقل عنه ماكنت أريد أن أتحدث به مجلوا فى سريرته، أفيجوز لى بعدها أن أسكت؟! ثم مضت بى الشواغل قرابة يومين نسيت فيهما عبد العزيز وواجهة «الأديب» حتى وقع فى يدى عدد الجمعة الموافق ٢ مارس سنة ١٩٧٣ من مجلة (الجديد) اللبنانية، فتصفحته على عجل، فإذا صورة عبد العزيز الربيعى فى أعلى صحيفة منه، وقد تصمنت حديثًا واقعيا عن مروءته؛ حيث وجدت الكاتب معترفًا بفضل الرجل الأريحى عليه، إذ كان يعمل مدرسًا بإحدى مدارس المملكة العربية السعودية، ثم تناولته الوشايات الكاذبة، فَفُصِلَ من عمله، وتحير ماذا يصنع وهو فلسطينى ضاعت أرضه، ولا يدرى أين يتجه؟ فأُشِيرَ عليه أن يذهب إلى عبد العزيز الربيعى، فهزته المروءة لمأساة زائره، وانطلق به إلى معالى وزير المعارف كى ينصف المظلوم فى محنته، وقد استمع المسئول الكبير حتى عرف مكان الحيف، فرد المدرس إلى مكانه، وأنهى المقال بحديث عن مروءة الربيعى التى أعرفها جيدًا، أفيجوز لى بعدها أن أسكت؟!

لقد كانت كتب الأدب القديم تحفل بروائع الأريحيات الصادقة، إذ تفيض صفحاتها بأحاديث عن همامة النبلاء ومروءة الشرفاء، فتهز الأعطاف للمجادة،

وتقود النفوس للشهامة! حتى وجدت لدينا كتب خاصة تنحو هذا المنحى من مثل «المستجاد من فعلات الأجواد» و «المكافأة وحسن العقبى» وأشباههما، ولكن طريقة التأليف العصرى قد حالت دون تسجيل ما يجد من طرف الأريحيين وهمامة الفاضلين، حتى ظنّ الناس أن حديث المروءة قد فُقِدَا! وأن الناس فى القديم غيرهم فى الحديث، فضاع موضع الأسوة الحسنة التى يجب أن تكون فى ملتقى أنظار الناشئة، أفيجوز لنا ـ مرة ثالثة ـ أن نسكت!

إن المروءة لدى عبد العزيز الربيعى مروءة دين أولا، ومروءة عروبة ثانيًا، ومروءة أدب ثالثًا، فهى مثلث ذو أضلاع متنافسة، ولابد لكل ضلع من حديث.

فمروءة الدين لديه تدفعه إلى أن يقول دائمًا ما يعتقد مهما قامت الحوائل وتكاثفت الصعاب، كنت أعلم حديثه فى ذلك من زملائى بالقاهرة قبل أن أفد على الرياض، ثم تلاقينا فى عاصمة السعودية، فإذا الصدق الصادق لما كنت أسمع، نكون فى المجلس الجامع فيتشقق الحديث، وتند عبارة من متحدث مرموق يعرف مكانه الرسمى أو العلمى، فيغضى السامعون فى تحفظ، ولكن عبد العزيز يرفع عقيرته بالنقد فى قوة، وقد يتعرض بعض ذوى اللجاجة إلى معارضته، فيصطدم الإعصار بإعصار، والرجل لايزيد إلا صلابة وشَماسًا حتى يتضاءل معارضه، إذ يتأكد أن عبد العزيز صريح أبِىٌّ لايستكين.

وقد يجمعك المجلس الحاشد إلى سماع محاضرة يلقيها مسئول لامع، ثم يأتى دور التعقيب فتجد الإطراء الراغب من أناس تعرفهم بسيماهم قبل أن يتحدثوا، ويأتى دور عبد العزيز فلا تجد إلا الصراحة الصريحة فى إيجاز واضح، وتلك مروءة دين قبل أن تكون زلاقة حديث.

ثم تسأل عنه إذا اشتقت إليه فتهاتفه فى منزله، فتعلم أنه خارجه يسعى فى حاجة غيره، وقد تمتحنه المحرجات فى أصعب الأوقات إذ يدق الهاتف بمنزله فى منتصف الليل، فتكون الإجابة العاجلة كما سمعتها أنا منه: أبْشِرْ، أنا إليك فى الطريق!

والمؤسف الآسف أنك تحدث الناس عن ذلك فيتألمون، وفيهم من يضيق بحديثك أكبر الضيق، وكأنك تنتقص من تحدثه حين تسمعه ثناءً يُساق إلى سواه وتلك خيمة لئيمة لا أدرى كيف تمكنت من نفوس هؤلاء الذين لايعملون، ويؤذيهم أن يعمل الناس، ولا والله مادفعنى إلى تسجيل هذا الثناء الصادق على عبد العزيز سوى أناس ضاقوا به فى مجلس خاص! فليت شعرى كيف يصنعون إذ يجدوننى ـ طلبًا للأسوة ـ أنشره على القارئين.

هذا بعض الحديث عن مروءة الدين، إذ إن الدين الصحيح سلوك وتربية ومعاملة قبل أن يكون رسومًا وشعائر وصلوات، أما بعض الحديث عن مروءة العربية فإليك.

يعتقد الأستاذ عبد العزيز الربيعى أن العروبة شرف وكرم وإباء، وأن العربى الصريح معدن من معادن الأخلاق المثرية والعطاء السخى، والرفاء الحى، وأن التاريخ العربى فى جاهليته وإسلامه يعطى النماذج الحية بشجاعة السيف، ورجولة القول، وعفاف النفس، وكرم الفؤاد، وإذا وجد من بنى العرب من تنكب هذه الفضائل فهم أقلية لئيمة قد انحدرت عن أصول طاب مفرعها وخبث ثمرها لأسباب لاتمت إلى أصالة الجذور ببعض الصلات، لذلك تجد فتى المروءة ذا حمية عاصفة تكاد تحمله من مكانه إذا غضب، وقد رأى ـ ولا أدرى لماذا ـ أن شعر أبى الطيب يرسم الأنموذج الحى للفتى العربى فجمع فى مكتبته كل ما استطاع العثور عليه من دواوين المتنبى ذات الشروح المختلفة للعكبرى والبرقوقى واليازجى وابن جنى وعزام، ثم التفت إلى كل كتاب يعلم أنه يتحدث عن المتنبى فى القديم والحديث فآثر شراءه وتولى دراسته، ثم ضمن له أطيب مكان فى مكتبته، أما الأعداد الدورية من المجلات العربية، فى مصر والشام والعراق مما يتحدث عن أبى الطيب فى أجزاء خاصة أو فصول متتابعة، فقد وَالَى التنقيب عنها قَدْرَ ما استطاع، وإنك لتلمح زهو المنتشى، ورضا المطمئن، وصلابة الواثق حين تجد عبد العزيز يتحدث عن أبى الطيب ويروى شعره، وأذكر أنه وجد صاحب مكتبة فى مصر يشكو إليه كساد بضاعته، ويطلب أن يبحث له عن عملاء بالسعودية، فصاح به

الرجل بديهة، سمّ مكتبتك مكتبة المتنبى، وستجد من بركة هذا الاسم مايجلب إليك القراء من شتى الأصقاع، وقد استجاب التاجر لاقتراح صاحبه، ولا أدرى أتحقق لمكتبته الرواج أم أن عبد العزيز رأى أن ينتهز الفرصة ليشيد بالمتنبى فى واجهة محل يطرقه الصفوة من القراء؟

وإذا كان الشىء يذكر بالشىء فأنا أروى عن نفسى أنى تحدثت فى إذاعة الرياض ثلاث مرات عن أبى الطيب، وقد بدا لى فى شعره وسلوكه ما لايرضى عنه عبد العزيز! ولم أكن أتصور أن صاحبى سيعد ذلك هجومًا ظالمًا يتحيف كل فتى عربى قبل أن يتحيف المتنبى، فظل معى ثلاث ساعات فى فندق اليمامة يجاذبنى النقد مجاذبة غاضبة، ويروى من قصائد الرجل ذات الحِكَم والأمثال ما أعلم وأحفظ، ثم احتدّ فقال: إننى لم أقرأ ديوان أبى الطيب! فلم أجد غير التسليم بعد أن امتد النقاش واستطال، وإنى لأهمس فى أذن صاحبى الآن بعيدًا عن مجلس النقاش، فأقول له: إننا ورثنا جميع شعراء العربية من طراز المتنبى ونظرائه، أمثال أبى تمام، والبحترى، وأبى العلاء، والشريف، فلماذا نقصر إعجابنا الخالص على فرد واحد دون سواه؟ قد يكون المتنبى شاعر العربية الأكبر عند أكثر الناس، فلماذا تحتم أن يكون كذلك عند الجميع بدون استثناء؟ إن هيام صاحبى بالعروبة قد حمله على أن يجسد مثالها فى صورة شاعر قوى الشخصية كالمتنبى، وله أن يفعل ما يريد، ولكن ليس له أن يُخضع أصدقاءه لما يشاء.

هذا بعض القول عن مروءة العروبة لدى عبد العزيز، تلك التى اتخذت مصادرها الوثيقة من التاريخ العربى ثم رأت فى شعر المتنبى ما يمثل هذه المروءة فى معرضها الخالب ومنظرها القشيب! وهى بذلك قريبة لصيقة من مروءة الأدب، ذلك الضلع الثالث من أضلاع المثلث لدى الرجل الماجد، ذى الإنتاج المتحمس، والقول المتدفع؛ إذ طالعت كثيراً مما كتبه فى جرائد السعودية اليومية ومجلات لبنان الأدبية، فوجدت مقالاته تحمل طابعه وتنادى عليه، ولو رأيتها غفلاً من إمضائه لعرفت صاحبها بقوة دفاعه، وشدة إخلاصه، وحسن تهديه! وهل كانت آثار عبد العزيز غير صرخات ناقدة فى سبيل العروبة أو ومضات خالبة فى مجالى الأدب؟!

أذكر أن مجلة «العرفان» اللبنانية قد خصصت واجهتها الأولى لفرائده النضيدة مرات عدة، فقدمت لقرائها قطعًا مركزة دقيقة من بيانه، تتجه أول ماتتجه إلى الهيام بالمجد العربى، والحذر من المتربص الأوربى مما يصلح أن يكون حُدَاء القافلة ومنار الطريق كما أذكر أنى قرأت له بحثًا ضافيًا تحليليا عن أحمد الصافى النجفى شاعر العرب الكبير! وهو بحث أشمتنى فى الكاتب وأضحكنى منه كثيرًا لا لشىء سوى أنه قال:

«يستحق الشاعر الكبير ـ أحمد الصافى النجفى ـ لقب متنبى عصره، فشعره يقف بثقة بالغة أمام شعر أبى الطيب المتنبى يرحمه الله! فهو يقول هنا وليس قوله هذا عن نبوة «إنى والمتنبى على خط واحد»:

يوحدنا فى الروح دارٌ ومَهْجَرُ ... ويجمعنا فى الشعر فن وَحُسَّدُ
أتى متنبى الشعر والروض أجْرَدُ ... وجئتُ وروض الشعر منه مُوَرَّدُ

ولندع رأى النجفى فى نفسه، فله أن يقارن بينه وبين المتنبى، بل له أن يرفع نفسه عنه، فمالنا الآن نقاش مع الشاعر الكبير! ولكننا نقول للأستاذ عبد العزيز: يا أخى كيف جاز لك فى أحاديثك أن تنكر مقارنة المتنبى بأبى العلاء وأبى تمام، والثلاثة قريب من قريب من قريب! ثم تقول فى حديثك عن النجفى: إن شعره يقف بثقة بالغة أمام شعر أبى الطيب رحمه الله!! أنا لا أنكر أن الأستاذ أحمد الصافى النجفى شاعر كبير، وأنه فنان أصيل، وأن مقامه جهير فى الشعر المعاصر! ولكنى أنكر أن يقرنه عبد العزيز بأبى الطيب، ثم يرفض أن يجعل المتنبى مقارنًا لأمثال أبى تمام، وأبى العلاء، والبحترى، والشريف؟ أهى مروءة الأدب قد بسطت أريحيتها الواسعة على النجفى فى ساعة صفاء حتى لفته مع المتنبى فى دثار واحد، وحرمت على غيره أن ينعم بدفء الكساء، وإنه لغال ثمين؟

وقد تَأَثَّلتْ صداقتى مع عبد العزيز من أول مجلس تحدثنا فيه، لأنى خرجت بانطباع قوى يدفعنى إلى مَوَدَّته إذ تمثل فى ذهنى فى صورة العربى الوافد من

عصور العزة الظافرة فى دنيا بنى أُمَيّة وبنى العباس، تمثل لى فى صور معن بن زائدة، وأبى دُلَف العِجلى، والأسود بن قنان، وغيرهم من ذوى الهمم الشمَّاء، وأذكر أن صداقتنا كانت من نوع غريب بالنسبة إلىّ، إذْ طالما حدثنى عن أمور كنتُ أريد أن أتحدث بها إليه، وطالما سبق إلى خواطر أراها مدوّنة فى صدرى، فأعجب لهذا التماثل الموافق، وكنت أعده شاذا فى بابه، ولكنى وجدت له نظائر فى صداقات الرجال، وأقربها إلى ذهنى ما ذكره أبو حيان التوحيدى فى كتاب «الصَّداقة والصديق» عن مودة متأصلة بين أستاذه أبى سليمان المنطقى وصديقه ابن سيار القاضى.

قال أبو حيان التوحيدى لأستاذه أبى سليمان: إنى أرى بينك وبين سيار القاضى ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلفيّة، فمن أين هذا؟ وكيف؟

فقال أبو سليمان: يا بنى لقد اختلطت ثقتى به بثقته بى، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا، لايرثّان على الدهر، ولايحولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع مشاكلة عجيبة، حتى أننا نلتقى كثيرًا فى الإدارات والاختيارات، والشهوات والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بينى وبينه، أو كأنى هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها، فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل.

قال أبو حيان: فسألتُ أبا سليمان، هل تجد عليه فى شىء أو يجد عليك فى شىء؟

فقال: وجدى به فى الأول قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى، على أنه يكتفى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، وأكتفى أنا منه أيضاً بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على سبيل الكناية كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون فى ذلك لنا مقنع، وقل ما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت من

ضميرى إلى شفتى، ولا ندَّت من صدرى إلى لفظى، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والله ما يسرنى بصداقته حُمْرُ النعم، وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا، فكذلك أعشق كل ما وَصَلَ الحياة بالحياة، وجنى لى ثمرتها، وجلب إلىَّ روحها، وخلط بى طيبها وحلاوتها»

وبعد... فأذكر أنى حين كنتُ طفلا صغيراً بمكتب القرية المتواضع، كان معلم المكتب، يخط على السبورة هذين البيتين لنتعلم من رسمهما الخط:

مررتُ عَلَى المروءةِ وهىَ تبكى فَقُلْتُ: عَلامَ تَنْتَحِبُ الفتاةُ؟

فَقالَت: كيف لا أَبْكِي وَأَهْلى جميعًا دُونَ خَلْقِ الله مَاتُوا؟!

وكان يقرؤهما متغنيا رافعًا صوته بإنشادٍ ساذج، فيخيل الىّ حين ذاك أن المروءة فتاة صغيرة على سبيل الحقيقة، وأن أهلها ماتوا فبكت عليهم، فمن يدلنى الآن على هذه الفتاة كى أذهب بها إلى قريبها الحبيب عبد العزيز الربيعى؟

* * *

# النجم الذى هوى
# الأستاذ محمد سعيد العامودى

شعرتُ بِلَوْعةٍ أليمة حين فاجأنى نَعْىُ الأديب الكبير الأستاذ «محمد سعيد العامودى»، لأنّ الراحل الكريم، كان نادرَ المثال فى خُلقه الرفيع، فما أعرفُ أديبًا مثله اجتمعت القلوب على تقدير مِثَالِيَّته الرفيعة، وسلوكه النبيل، إذْ كانَ من الترفّع عن الصغائر، واحتمال المشاكسات المغرضة، بمنزلة تُقدمُ النمط الأعلى لذوى الخُلق الرفيع، وأصحابُ الأقْلام الهادفة، لا يخلونَ من خصومٍ ينصبُون لهم المكايد، ويؤوّلون الصريح من القول على غير نهجه السليم، وذلكَ ممّا يغيظ ويرهق، بل مما يدفع إلى الردّ القامع، والقولِ القارص، ولكنّ سماحة الأستاذ العامودى كانت بردًا وسلامًا على عارفيه، مُقرظين وناقدين، لذلكَ ضَمِنَ تقديرَ ذوى الفكر من جميع الاتجاهات، وهذا التقدير لاينشأ عن فراغ.

وأذكرُ أنّى سعدتُ بزيارة الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودى للمنصورة، مع صديقه الشهير الأستاذ عبد القدوس الأنْصارى، مؤسّس مجلة المنهل، وقد أصرّ الأديبان الكبيران علَى أن نجْلس تحت الكافورة التى كانت المكانَ الأدبىَّ العامر بمندى الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة وكانَ المجلسُ عامرًا بالأنصارى والعامودى، إذْ تشقّق الحديثُ عن أفكار عميقة فى السياسة والدين والأدب والاجتماع، وكادَ الليل ينتَصف، والسامعون منبْهرون، والأديبان السُّعوديّان يتوليان قيادةَ الحديث، والعواطفُ المشتركة، والأمانى المتحدة، والإخلاصُ المتفق، كلُّ ذلك يجعلُ من الليلة السعيدة ليلة عيد، وأُمسية مهرجان.

**الصديقان الكبيران:**

وقراءُ المنهل، بل أدباُء العربيّة جميعًا يعرفونَ مدى الصداقة المُثْلى التى ربطت بين قلبَى العامودى والأنصارى، وأذكُر أنّى ألمعتُ بإيجاز إلى هذه العلاقة الأخويّة المثاليّة بين الرجلَيْن الرائدَيْن، فقلتُ فى مقالٍ متواضع نشرتُه بمجلة المنهل بعددها الصادر فى ذى الحجة سنة ١٣٩٨:

«... وأنا أقّدس الصداقة الفكرية، وأعتّدها أقوى أسباب المودّة، وقد شاهدت بيْن الأستاذيْن الكبيرين عبد القدوس الأنصارى ومحمد سعيد العامودى صداقةً مثاليةً، لبابُها الأدبُ الخالص، ومحورُها المثلُ العالى للخُلق الكامل، وقد امتدت هذه الصداقة أكثر من أربعين عامًا، ولا تزيُدها الأيام إلاّ قوةً وتأثيلاً، وبَيْن العامودىّ والأنصارى اختلافٌ كبيرٌ، يذكّرنى باختلاف ما بين المازنى والعقاد من سمات فكرية، فهو اختلافٌ مثمر نافع، لأن كلا الصديقيْن يجدُ فى هذا الاختلاف مجالاً للنقاش الأدبى والحوار الفكرى».

فالعامودىّ مثل المازنى، ذاتى أكثرُ منه موضوعيا، يعتمدُ على عواطفه الخاصّة أكثَر مما يعتمدُ على اطلاعه ويميلُ إلى التّشجيع والتغاضى عمَّا يؤلم منقوديه، وقد يَلتمسُ المعاذير لأكثر هذه الأخطاء وكذلك كان المازنى.

أمَّا الأنصارىُّ فكالعقاد، موضوعى يستشير المراجع، ويفصلُ ما بين الآراء، وفكرهُ مَجالُ تبريزه الأوّل، وإذا نَقدَ فلابد أن يكشف كلَّ المآخذ بدون نقاب، وهكذا كانَ العقاد، وإذا كان الاطلاعُ الدائب دَيْدَنَ الكاتبيْن المصريّيْن، فهو أيضًا ديدنُ الكاتبين الحجازيَّيْن، ونأمل دائمًا أن تكونَ صلة الأدباء جميعًا هكذا، مع اختلافِ النزعات، وتنوع المشارب».

**آفاق مختلفة:**

وقد كتبَ العامودى القصّة والمقالة والقصيدة والبحثَ، ووالَى النقد الأدبى طيلَة مراحل عمره الأدبى، ولنْ يستطيع مقالٌ واحدٌ أن يُلم بأثر الرّاحل الكبير فى هذه الميادين، ولكنّى أقتصرُ على ناحية الذكريات فى هذا المجال، وأذكُر أنَّ من

الإلهام الصادق فيما يخص الأستاذ العامودى أن قام النّادى الأدبى بجدّة بحفلة تكريم كُبرى للأستاذ الكبير، جمعتْ صفوةً من أهل الفضل. فألْقيت البحوثُ الخاصة بتحليل أدب العامودى شعرًا ونثرًا، وتدَافَع أصدقاؤه الكبارُ من روّاد الأدب السعودى يتحدّثون عن نُبوغه الأدبى، وسموِّه الخُلُقىّ، بما شَفَى الصدور، ورنّح الأعطاف، ثم ارتحل الأستاذ العامودى بعد قرابة شهرٍ من هذا المهرجان الحافل، وكَأنَّ اللّه عز وجل شاءَ أن يُسْمِعَ الرجل ما تنبضُ به قلوب مُحبيّه قبل أن يُفارقهم، فيعلم أنّ غرسَه الطيب قد أثْمر، وأنّ أصدقاءَه وتلاميذَه يعرفون أنّه القدوة المثلى لذوى الترّفع النبيل، والحياء الوديع! لقْد كاَن الأستاذُ الكبير عبد الفتاح أبو مدين مُلهَمًا حين دعا إلى هذه النّدوة لتكونَ الشفقَ الجميل الذى يُزَرْكِشُ وجَه الأفق بأصْباغه الفاتنة قَبل الغروب! وإنْ كنّا نعلمُ أن غروبَ ذوى الفكر، كغروب الشمس، ما تلبثُ أن تَذْهب فى المساء حتى تُشرق فى الصباح! والأديب الهادفُ ينتقلُ بجسده من عالم الأرض، وتبقَى آثارُه الأدبيّة مشرقةً فى نفوس قرائه، فهى شمسٌ تتجدد، وضياءٌ يتوهج بدون انقطاع!

على أنّى وأنا الخبير بنفس الأستاذ العامودى رحمه اللّه، أعرفُ أنّه زاهدٌ كلّ الزهد فى مواقف التكريم، ولو رجَع الأمر إليه لأوْصَى بعدم الاحتفال، أعرفُ ذلك لأن مقالاتٍ كثيرة كُتبتْ عن أدَبه، ووصلتْ إليه، فحالَ دون نشرها، ومن ذكرياتى معه أنّى كتبتُ مقالاً أدبيا عنه يُنشر فى مجلّة (المنهل)، وانتظرتُ أن أقرأ المقَال، ولكنّى فُوجئتُ بخطابٍ رقيقٍ من العامودى يُعلمنى فيه أنّ رئيس تحرير المجلّة ـ وهو صديقه الحميم ـ قد أطلعه على المقال قبل نشره، فوجده أكثَر ممّا يستحق، لذلك يستحلفنى أن أنزل عْند رغبته فى عدم النشر مع جزيل شكره، ووافر تقديره! ولم أُوافق العامودى على اتجاهه، فبادرتُ بإرسال المقال إلى مجلة الأديب اللبنانية فنشرَتْه فى افتتاحيتها، وكتبتُ للرجل أُعلمه بما فَعلْتُ، فكتبَ إلىَّ خطابًا طريفًا تحت عنوان «أمرى إلى اللّه»، وإذا أرادَ القارئ أن يرجع إلى هذا المقال فسيجدُه بعدد فبراير سنه ١٩٧٢ من مجلة الأديب.

## فى رحلة الحج:

كان الأستاذ العامودى يتفضّل بصحبتى فى أكثر مراحل الحج إيناسًا لوحدتى، ثم يدعونى مساءً إلى منزله العامر لنلاقى صفوةً من أدباء المملكة، حيث يدور الحديث عن الأدب والتاريخ، وما يلم بالعالم من أحداث، وأذكر أُمْسِيّة لطيفة حضرها الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور العطار، فتحدث كثيراً عن ذكرياته بمصر، وَوَازَن بين أدبائها الكبار، ولم يَرض مُنافسًا للعقاد من بينهم، حيث جعله أمة وحده، ثم جاءَ حديث التحقيق الأدبى للتراث العربى، فقال: إنه يَنْعَى على بعض علماء الأزهر الكبار كثرة تحقيقه فى شتّى فنون العربية بدوُن اتئادٍ مطمئن، فأدركتُ أنه يعنى أستاذنا الكبير الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد، فقلت: لعلّك تعنى فلانًا، فقالَ: أجل !؛ قلت ياسيدى، إنّ لكلّ وجهة هو موليها، فمن المحققين منَ يكون هَدَفهُ إخراجَ نصّ صحيح للقارئ، وهوَ فى سبيل ذلكَ يُعانى نقدًا ذاتيا حين يوازن بين الكلمات المطموسة وما يجب أن يحل محلّها، حتى يستقيم النَّص على وجه صحيح، وهذا ما يُفعله الأستاذ محيى الدين فى غير كتب النحو والبلاغة والصرف، حيث يُضيف شروحًا مستفيضة على هذه الكتب تُنبئى عن علم غزير، ومن المحققين من يُراجع ماعثر عليه من المخطوطات، فإذا وَجدَ اختلافًا فى حرْف عطف أو مايشابهه أخذ يكاثر فى الهوامش بتسجيل هذا الخلاف على عُقْم جدواه حتى يتضخم الكتاب! وهذا سبيلٌ استشراقى أخذ الكثيرُ منَّابه.. فقال الأستاذ أحمد عبد الغفور: إنّه السبيل الذى لا معدى عنه! قلُت: أقرأتَ ما أصدرَه الدكتور سامى الدهان حين حقّق ديوان أبى فراس الحمدانى؟ إنه نشرهُ فى ثلاثة أجزاء ضخام، وكلُّها ذات عناء فى ذكر ما جاء بالمخطُوطات حين يتَغير حرف واحد فى بيت عن مثيله فى مخطوطةٍ أخرى، ثم جعل الثمن أضعافَ ما كانَ ينتظر، فلم يَحُز الكتاب غير نفر قليل، واضطرت دارٌ أخرى إلى إصدار الديوان فى جزءٍ واحد ذى حجم لطيف، فلاقى الذيوع! ولعلّ وجهة أستاذنا محيى الدين هذه الوجهة التى يقصد بها النفع العميم، فقال الأستاذ أحمد: وأنا لا أقبلها!

فابتسمَ الأستاذ العامودى، ثم قالَ: أنَا أَرى التّدقيقَ فى تحقيق الكتب الدينيّة، لأنّ اختلاف العبارة فى حرفٍ واحد قد يتغير معه حكم شرعى، أما تحقيقُ دواوين الشعر وكتب الأدب والتاريخ فمبالَغة الدكتور سامى الدهان فى صنيعه بديوان أبى فراس إغراقٌ لا معنى له! والأستاذ محيى قدّم كتبًا كثيرة أفادَ منها الناس، كنفح الطيب، ووفيات الأعيان، ومعاهد التنصيص، ومروج الذهب، وحُسن المحاضرة، وهذه وأمثالها يُغْنى فيها النّص المستقيم، وحسْبه مالاقى من صعوبةِ القراءة الأولى. فعجل الأستاذ العطار يقول فى ابتسام: كان أستاذنا العامودى أستاذى بمدرسة الفلاح، وأنا منذُ عهد الطلب أحترم رأيه، وأراهُ فوق ما أُبدى من الآراء، ولعلّه قد وَفّقَ بين الاتجاهين على نحو حميد. وانتهى المجلس فى بهجة وسرور.

**سرقة فاضحة:**

كانَ الأستاذ العامودى يسألنى عن كتّابٍ فى مصر يتجهونَ الوجهة الإسلامية، ليسهموا فى نشر بحوثهم بمجلّتى التضامن الإسلامى، ورابطة العالم الإسلامى، اللّتين يقوم على رئاسة تحريرهما، فَدَلَلْتُه على نفرٍ من كرام الكاتبين أشرقت مقالاتهم الجادّة على صفحات المجلتين الأثيرتيْن، وكان مَن قدَرى أن أُغَرَّ فى كاتب يشتغل بالمحاماة، وينشرُ مقالاتٍ تشريعية بجريدة «البصير» التى تصدر بالإسكندرية، وقد حدّثنى أنّه يريد النّشر فى مجالٍ أوسع ليخرجَ عن حيّز مكانه المحدود، فطلبتُ منه بحثًا تشريعيا يُناسب مجلة «التضامن»، وقرأته، فأيدتُه شاكرًا، ثم بعثتُ به إلى الأستاذ العامودى، فعجل بنشره، ولم يكدْ يرى النور حتى توالتِ الرسائل على المجلة تُعلن سرقة المقال جميعه من كتابٍ ألّفه أحدُ الأساتذة بكليات الحقوق المصرية، وكتبَ إلىَّ الأستاذ، لا ليُؤاخذنى حينَ زكيّتُ مَن لايستحق، بل ليقولَ إنّه يعتذرُ حين يبلّغنى ما ارتكبه (فلان) فى حقّى أنا، إذ خَدعَنى فى أمره، وما كانَ له أن يُخبرنى بذلك لولا أنّه يخشى أن تستمرّ الخديعة فأزكيه فى ناحيةٍ أخرى، وإذا كان السّارق مُحاميًا درسَ القانون والشريعة، فإنّ فى وسعه أن يَبْحث، بدون أن يَسرق مادام راغبًا فى النشر والتأليف!

قرأتُ ما أرسله إلىّ الأستاذ، فشعرتُ بالحرج، وأخذتُ ألومُ نفسى أن خُدِعتُ هكذا، وجعلتُ من شأنى أن أناقش كلّ من يدعى البحث فيما يقع فى يدى منه، لأعلم أسَرق أم صَدَق، ثم راسلتُ الأستاذ معتذرًا عن ذنب لم أرتكبه عامدًا، وإنّما جاء عن طريق الظّن الحسن بالمسىء! فردَّ على الأستاذ بِطُرْفَةٍ نادرة، رددتُ عليه بمثلها، وهما هاتان:

## طرفتان نادرتان:

ذكر الأستاذ العامودى فى كتابه الرقيق، أن طرفةً من نوادر السرقات، وقعتْ له شَخْصِيا، إذ كتبَ مقالاً بمجلة قافلة الزيت عن رحلة باحث إنجليزى إلى مكة حاجا بعد أن أَسلم، ومضتْ سنواتٌ، وجاءه المقالُ بعينه من كاتب يتعلق بالأدب لينشره باسمه فى مجلة التضامن، فوقَع فى حيرة سببها أنُه من غير المعقول أنْ يُرسل إليه كاتبٌ عاقلٌ بمقال كتَبَه رئيسُ التحرير نفسه، لِيُنشر بصحيفته! لأنّه بدهيا أولُ من سيكشف السِّرَّ، ثم أَخَذ الأستاذ يبحثُ بعضَ الدوريات حتى عثر بمقاله المسروق فى صحيفة لبنانية منسوبًا لكاتب جديد! فتأكّد أنّ صاحبَ المقال قد نقلَه عن صحيفة لبنان، فهو سارقٌ ينقل عن سارق، قال الأستاذ: وجاءَنى الكاتبُ يسألُ عن مقاله، فخجلتُ أن أخجله بمكتبى، وقلتُ: إن الموضوع مشتَهر، يعرفه القراء ولا دَاعى لنشر المشهورات!

جَاءَتْنِى منه هذه الطرفة، فرددتُ عليه بطرفةٍ مناسبة، خُلاصتها أن أحد ملوك الطوائف بالأندلس جلسَ يوم عيد الفطر ليسمَعَ مدائح الشعراء فى هذه المناسبة، وكانَ عدتهم عشرةَ شعراء، فأخذوا ينشدون القصائد فى تهنئة الملك بالعيد، ولكنّ أحدهم اعتذر عن إلقاء قصيدته، بعدَ أن سجّل اسمه فى القائلين، وهمَّ بالخروج، فناداهُ صاحب الأمر، وسألَه عن سرِّ امتناعه بعد أن سجّل اسمه، وإذا كانت القصيدة ضعيفة بالنسبة لما قيل فسيُجازيه متفضّلا، فقالَ الرجل: لقد سرقْتُ القصيدة من ديوان مَشْرِقى، ولكنى فُوجئت بسارقٍ آخر يتقدّمنى وينشدها بين

يديك، فلم أشأ أن أنطق، فتعجب الملك، وقال: هذا تواردُ خواطر فى السرقة الكاملة، وكانتْ فكاهة اليوم.

هاتان نادرتان، وقد يكون لهما أشباه ونظائر، لأن اللصوص كثيرون.

* * *

# الإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق

عرفت الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق من آثاره الفقهيّة، قبل أن يتولى منصب الإفتاء بأمد واسع، إذ كنت أقرأ له فى مجلات القانون والقضاء مقالات فقهية ذات بصر نافذ، وأذكر أنه كتب فى الستينيات بحثًا قانونيا يعارض فيه حكما أصدرته محكمة النقض مخالفةً ما أصدرته محكمة الاستئناف حين حتمتْ وجود الشاهدين فى قضية تطليق، ورأتْ محكمة النقض الاكتفاء بشاهد واحد، لأمورٍ نَقَضهَا الأستاذ جاد الحق، وكان حينئذ قاضيًا بمحكمة الأحوال الشخصية فى مصر الجديدة، فأبَدى آراء الحنفيّة فى ضرورة وجود الشاهدين، وذهبَ إلى أنّ حكم النقض المتأثر بالقانون المدنى لا اعتبارَ له أمام المذهب الحنفى الذى تأخذُ به المحاكم فى الأحوال الشخصية، قرأتُ ماكتبه القاضى الشاب مواجها حكم الهيئة القضائية العليا فى زمنٍ أكثرت الصحفُ اليومية من هجومها على المحاكم الشرعية غبَّ إلغائها الجائر، فرأيتُ شجاعةً واثقة تواكب التضلّع الفقهى الرصين، ومنذُ قرأت هذا المقال، وأنا أجتهدُ فى متابعة هذا القلم الأصيل حيث أجدُ أثره الرصين.

وحين عُين الشيخ مُفتيًا للديار المصرية، أخذتُ أتتبع فتاواه الهادئة، إذ كان ينشرُ آراءه العميقة فى غير صَخب أو ضجيج، وقد أُتيح لى أن أقرأ المجموعة الحافلة لهذه الفتاوى بمجلدات ثلاثة أصدرتها دار الإفتاء، فقرأتُ ما أعهد من غزارة العلم، وأمانة الفتيا، وهدوءِ النفس، وسرَّنى أن أجد المفتى الأكبر لا يحدّ بصرهُ فى مذهبٍ واحد، بل يلم بجميع المذاهب الفقهية: من حنفيّة، وشافعية، ومالكية، وحنبليّة، وزيدية، وإمامية، وأباضية، ويعتمُد الرأى الصحيح حيثُ

وجده بدون تحيز إلى مذهب معيّن، وهذه الأصالةُ فى الفتوى امتدادٌ لمنحى الأئمة الفضلاء، من أمثال محمد عبده، وعبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، وهم من أعلام الفتوى فى العصر الحديث.

وكان أول لقاء سعدتُ فيه بمحادثة الإمام الأكبر بكلية اللّغة العربية بالمنصورة، حيث كنتُ عميدًا لها، وحضر الإمامُ لافتتاح مصرف إسلامىّ مع وكيل الأزهر إذْ ذاك فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود، ورأيًا معًا أن يزورا كلية اللّغة، فرحّبتُ بالزّائرَيْن الكبيريْن، وألقيتُ كلمةً قلت فيها: إنّ المنصورة فى حاجة إلى كلية للبنات تختص بالدراسات الإسلامية والعربية، وإن الإمام الأكبر من خيرة أبناء الدقهلية، ويسّرهُ أن ينتشر التعليم الدينى للبنات فى محافظته، كما ذكرتُ أن سَلَفَهُ الكبير الأستاذ مأمون الشناوى منذ ثلاثين عامًا زار المنصورة وهو شيخ الأزهر فاحتفلتْ به، وسمع من يرجُوه أن يعملَ على إنشاء معهدٍ دينى بالمنصورة، فرحَّبَ بالفكرة، وقال: «إنها مدينةُ أهلى وأبنائى،» وها هى ذى الفرصة تسنح لتقديم رجاءٍ مماثل للشيخ الأكبر، وهو جدير بتحقيقه، وما انتهيت من كلمتى المتواضعة، حتى نهض الإمام شاكرًا، وواعدًا بالعمل على تحقيق الرجاء، وفى غضون سنواتٍ قليلة أصبحت كلية الدراسات العربية والإسلامية للبنات بالمنصورة حقيقةً واقعة، بفضل جهودٍ متضافرة تُضاف إلى جهد الشيخ الأكبر، وفى قمتها جُهدا لمحافظ النشيّط اللواء سعد الشربينى، وأنا هنا أقرر حقيقة ولا أمدح أحدًا...

وفى ذات صباح دعانى الإمام الأكبر للقائه، وحَدثنى عمَّا يقابله الأزهر فى الصحف من هجوم ظالم يقومُ به أعداء التعليم الدينى من العلمانيّين، وأنه يأمُل أن ينشط كُتَّاب الأزهر لردّ هذه الحملات الظالمة، لأن صوت الحق لابدّ أن يرتفع، ثم قدّمَ لى عددًا من جريدة الجمهورية، يتضمن مقالاً متجنياً على علماء الدين، وقد قرأتُ المقال فعجبت لمن نشره أكثرَ من عجبى لمن كتبه، لأنه يتضمّن معَ هجومه المنكر جهالاتٍ لايمكن أن يقَع فيها صاحب قلم يكتبُ عن كفاءة واقتدار، وحسبُ القارىء أن يعلَمَ أن هذا الكاتب ذكر فى مقاله أنّ العلم الدينى لايجبُ أن

يُؤْخذَ فى معهد، وأنّ أبا حنيفه والشافعىَّ ومالكًا و ابن حنبل لم يتعلّموا فى معهد دينى، وصارُوا عُلماء، مع أنّ أصغر طلاب الأزهر فى المعاهد الإعدادية يعرفونَ أن المساجد لعهد الأئمة كانتْ معاهد دينيّة تُدرسُ فيها أحكام الشريعة وعلومُ اللسان كما كانَ نظام الأزهر فى مطلع هذا القرن، وأن أبا حنيفة قد درَس فى مسجد الكوفة، والشافعّى فى مسجد مكة، ثم درَّس فى مسجد الكوفة، ثم درَّس فى مسجد الفسطاط، ومالكًا قد عكف على المسجد النبوى فلم يبرحْه لغير الحج ليكونَ موضعَ تدريسه ورواية الحديث عنه، وابن حنبل قد درسَ فى مسجد بغداد، وأملى المسند به، وهكذا يتصدَّر مثل هذا الكاتب إلى الافتيات على العلم والعلماء، ويُوالى نشر مقالات لاتخرج عن دائرة الجهل الصريح، وما قرأتُ المقالَ حتى سارعتُ بالرد عليه، ونَشرت الجمهوريُة الردَّ فى مجموعه لاجميعه، ولكنّه كشف الحوار، وبيّن الانحدار.

وفى زيارةٍ تالية للإمام الأكبر قدّم لى سلسلةً من الكتب التى صدرتْ باسم «التنوير» وهى تحملُ الإظلام، لأنّ التنوير الحقيقى مصدرُه القرآن، وقد قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

أمّا الكتبُ التى تُهاجم الشريعة الإسلامية وتعَدها غير صالحة للزمن المعاصر، وأمّا الكتبُ التى تتجنّى على التراث العربى وتعدهُ حطامًا بائدًا فات أوانه، فليستْ من التنوير فى شىء، وقد اخترتُ من هذه الكتب كتابيْن هُما: «الإسلامُ وأصول الحكم» للأستاذ على عبد الرازق، و «مستقبل الثقافة فى مصر» للدكتور طه حسين، لأقومَ بالرد عليهما، وقد نشرت مجلة الأزهر رُدودى الصريحة بدون إبطاء، والحق أنّ الذين قاموا بنشر كُتُب فات أوانُها فى هذه الفترة بالذات، لا يجهلون أن الشعب لايقرأُ ما يأفكون، لأنه يعلُم أن دعْوى التنوير اليوم كدعوى

(١) سورة المائدة: الآية ١٥ ـ ١٦.

التقدمية بالأمس حين سئمنا ما ادّعاه الشيوعيون من تقدميتهم الزائفة، بحيثُ أصبح كلّ يساريّ تقدميا، وكل مؤمن يلتزم بشريعة الله رجعيا! وطالَ عواء القوم حتى سقطتِ الشيوعية وافتضحَ مازعمتْه من التقدم الزائف، وخجل اليساريّون أن ينطقوا بالتقدمية، فلجئوا إلى كلمة التنوير، وأنا أسأل: هل الإسلام بشريعته مصدر تنويرٍ أم مصدر إظلام؟ وإذا كانَ القائمون بالتنوير الزائف يجهلون كل شيء عن الإسلام فَلِمَ يتحدثون عنه، ثمّ ألا يخجلونَ وقد نبذَهم القُرَّاء فَبَارَتْ كُتبهم، وزادَ التفاف الجمهور المسلم فى مصر حول ذوى الأقلام المؤمنة، ودُفن التنوير فى لحده السحيق!

ومما يؤسف له أن الإمام الأكبر يُجابِه من يُسيطرون على الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وأكثرُهم يَنْشرون لأعداء الشريعة كلّ ما يقولون، فإذا تقدّمَ للردِّ كاتبٌ مخلص وجد الإهمال المتعمّد، بل إن مقالات الإمام الأكبر تُبتر وتُجتزأ، ويُكتفى بمقدماتها، فإذا أصدر الشيخ بيانًا فى مناسبة كالهجرة أو المولد أو رمضان، وبدأهُ بذكر المناسبة، ثم تطرق سريعًا إلى معالجة مسألة هامة تشغل المسلمين، فأبدى حكم الإسلام صريحًا غير مُقْتَضَبٍ، فإنّ القائمين على هذه الصحف يُغفلون ما يقولُه الإمام، ويكتفونَ بذكر المقدمة التى يعَرف مضمونها القرّاء سلفًا، وما هى إلا تمهيد لما يجب أن يُقال! لقد أصدر الشيخ رأيَه فى كلّ ما يعرض فى الساحة المصرية جريئًا واضحًا، ولكنّ ذوى المرض والغرض ألجئُوه إلى الشكوى من هذا الحيف الظالم، ولعلّ من الأسف القابض للنفس، أن تُصدرَ الجريدة اليوميّة صفحتيْن كبيرتين دائمتيْن للرياضة، وصفحةً أو صفحتين للسينما والمسرح، وصفحة للأدب لاتحمل مقالاً توجهيا، بل تضمّ أخبارًا سقيمة حولَ من يلوذون بالجريدة، وإن انقطعتْ صلتهم الحقيقية بالأدب والأدباء! تُصدر الصحف كلّ هذا الهباء فى آفاقه المتسعة الفسيحة وتضيقُ عن كلمةٍ يصدرها إمام المسلمين فى يوم كريم!! أليسَ هذا هو العبث بعينه؟!

لمْ ينته الإرجافُ بالشريعة إلى حد، فقد نشرت جريدةُ العروبة خلاصةً لمحاضرة ألقاها الأستاذ جمال بدوى، جعلتْ عنوانها ينمّ عن عدم صلاحية القرآن الكريم

للتشريع فى العصر الحاضر، وكان من عناصرها أنّ آيات الأحكام فى القرآن قليلة، وأنّها لاتكفى النّواحى المتشعبة فى قوانين العصر المختلفة، وأن ما صدر عن رسول الله ﷺ لايُعد وحيًا، وأقوالُ الأسلاف من أئمة التشريع لاتُعتبر حجة، والاعتمادُ على العقل هو أساس التقنين، وعبارةُ الاجتهاد مع النص تتطلبُ إعادة النظر، والمعتزلة لايعترفونَ بالأحكام النَّصيّة، هذه هى العناصرُ المهمة، ومنها ما هُو مَسلّمٌ به، وما هو مشتط جائرٌ لاصوابَ فيه، وقد زُرت الإمام الأكبر بناء على طلبه، ليعرضَ على خطابات شتّى من المسلمين تطلبُ الردّ على محاضرة الأستاذ جمال بدوى، وقد استغربتُ أن تكونَ هذه الآراء صادرةً عنه، لأن مؤلفاته ومقالاته تنم عن اتزان وحصافة، فكتبتُ ردا على هذه الأقوال، وصرحتُ فيه بأنى أعتقد أنّ كلام الأستاذ جمال بدوى قد حُرِّفَ، ونشرتْه الصحيفةُ على غير وجهه الصحيح، فالردّ إذن لايكون على الأستاذ جمال، ولكنْ على الذى حَرَّف وبَدَّل، ثم رأيتُ من المجاملة الأخويّة أنْ يُنشَر الردّ بجريدة الوفد التى يرأس الأستاذ تحريرها، فأرسلتُه إليها واثقًا من حرية النشر، وبخاصّة وأنا من كُتّاب الجريدة، ولى بها أكثر من خمسين مقالاً، ولكنّى فوجئت بعدم النشر، فلم أجد بدّاً من نشر الرد بمجلة الأزهر، فصادف ارتياح الكثيرين.

وقد تقدَّمْتُ إلى الإمام الأكبر بكتاب لى تحت عنوان «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» تحدثتُ فيه عن جهاد الأزهر السياسى منذُ العصر العثمانى حتّى الآن، ولم أُطل الحديث فى هذا الاتجاه لأنّ غيرى قد تحدّث عنه بإشباع، أمّا الذى اهتممتُ به فموقف الأزهر من حرية الفكر التى يدّعى بعض الأغرار معاداة الأزهر لها، فعرضتُ لمواقف العلماء من آراء على عبد الرازق، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وغيرهم مّمن خالفوا المقرّر الصحيح إلى مشبهات واهية كانتْ فى نظرهم جديرةً بالاعتبار، وأوضحتُ بطلان هذه الآراء مُبَيِّنًا رأى الأزهر الصحيح فى أخطاء كتاب الشعر الجاهلى، وكتابِ الإسلام وأصول الحكم، وغيرهما ممّا ثارَ حوله الضجيج فَوضح للعيان أنّ الأزهر يُدافع عن الحقائق الأصيلة بلسان المنطق، ومن حقّه أن يقولَ لمن أخطأ فى حق القرآن أو الشريعة أنتَ مخطئ، ويُبيّن

أسبابَ الخطأ، وإلا فما مَعْنى بقائه حارسًا للإسلام، وشارحًا لتراث الأئمة الأعلام؟ وقد قرأ الإمام جاد الحق كتابى باعتناء، وأمر بطبعه، فتناولته الصحف بالتعليق، كلٌ حسب اتجاهه، ولكنّ حقائقه المركزة لم تجدْ من يقف أمامها مستنداً إلى دليل..

لقد كان فى طوقى أن أتحدث عن مسائل معاصرة كثيرة شاهدتُها عن عيان، ولمستُ للشيخ الأكبر فيها نضالاً مثابراً لايعرف الكلَل، ولكنّ الزمن لايُواتى كل المواتاة، فيسمح بنشر ما يُغضب قومًا يرونْ أنفسهم أصحاب الحق، ومن خَالَفهم مخطئًا غير مصيب، ولهم شيعةٌ تضرب لهم الطبول بدون تعقّل، وتملك من وسائل النشر مالانملك، فسكوتًا حتى يعتدل الميزان.

* * *